المحاضرة الثالثة: الآداب الغربية القديمة

أوّلا– الأدب اليوناني:

ظهرت أقدم فنون الأدب اليوناني في فترة ما قبل التاريخ، أو عصر الأبطال، والأساطير، وأهمّ آثارها الأدبية التراتيل الدينية، التي لم تصلنا منها إلّا شذرات تمّ التعرّف عليها من خلال جزء من العبادات التي ظهرت في مدينة (تراقيا)، وأشهر الشعراء الذين نظموا هذه الأناشيد(أرفيوس)،و(لينوس)، و(موسايوس)، كما ظهر في (كريت)، و(ديلوس)،وغيرهما من جزر بحر إيجة منشدون تغنّوا بمثل هذه الأهازيج الدينية، ولكنّ هؤلاء الشعراء ينتسبون جميعا إلى عالم الأساطير، لأنّهم أبناء آلهة ملهمون ينطقون بوحي من ربّات الشعر، ولم يتبق لنا شيء من آثارهم.

وقد مرّ الأدب اليوناني القديم كغيره من الآداب بعدّة مراحل هي:

– مرحلة البدء: وهي فترة تفسّخ المجتمع البدائي القبلي، وفيها ساد الفنّ الشعبي الشفهي سيادة مطلقة.

– المرحلة الكلاسيكية: وهي فترة تكوّن، وازدهار الدول (المدن الحرّة)، وفي هذه المرحلة تتطوّر ثلاثة أجناس أدبية متتالية: هي الشعر القصصي الملحمي، فالشعر الغنائي، فالشعر التمثيلي الدرامي(المسرحية).

1 – الشعر الملحمي: من أبرز الروائع الخالدة في هذا الجنس (الإلياذة والأوديسة) الهوميريتين، حيث تروي الأولى منهما أحداث حرب طروادة، التي تتمحور حول غضب (أسخيلوس) أحد أبطال الإلياذة من الإهانة التي لحقته من الملك(أغاممنون)، والقائد اليوناني في حصار اليونانيين لطروادة في آسيا الصغرى، بسبب خطف (باريس) أحد أمراء طروادة لزوجة (مينيلاوس) ملك اليونان.

أمّا الأوديسا فتروي مغامرات البطل (أوديسيوس/عوليس/يوليسيز) في عرض البحر بعدما رفض العودة إلى موطنه، بعد انتهاء حرب طروادة بثماني أو عشر سنوات، حيث يتنافس الأمراء في غيابه على التقرب من زوجته التي تحتال على إبعادهم عنها بذكائها، بدعوى غزل ثوب لزوجها نهارا، ثم تنكث ما تغزله ليلا، وهكذا إلى أن عاد زوجها.

فالإلياذة ملحمة حرب، وتدمير، ومنافسة دامية بين الأبطال والمدن، أمّا الأوديسا فتصف عودة البطل اليوناني(أوديسيوس) ملك جزيرة إيتاكا إلى وطنه بعد أن سقطت طروادة، حيث يتوزّع هذا الحدث المحوري على دعامتين:

– أوّلهما: عودة الزوج إلى ابنه وزوجته بعد غياب دام ثماني، أو عشر سنوات.

– ثانيهما: الأحداث الأسطورية المدهشة من خلال المغامرة في البحار، وما لقيه البطل من مصاعب وأهوال، كالوحوش، والمسوخ الأسطورية (العملاق ذو العين الواحدة).

2 – الشعر التعليمي: ألمع الأسماء في هذا المجال " هوزيود " بملحمته(الأعمال والأيّام) التي يدور موضوعها حول وصف حياة الفلاحين الإغريق الشاقة، وحسن تدبيرهم، وحصافة رأيهم.

3 – الشعر الغنائي: وهو شكل شعريّ أقصر من الملحمة، كان يغنّى في الأصل بمرافقة القيتارة، وكانت معظم القصائد الغنائية تصف المشاعر الشخصية بدلا من أعمال البطولة التي صوّرها الشعر الملحميّ، وأشهر شاعرة انشادية في هذا المجال (سافو)، التي لم يستطع أيّ شعر حبّ إغريقيّ أن يضاهي عاطفة، ومشاعر شعرها المأساوي.

4– الشعر التمثيلي(المسرحية):

نشأت المسرحية اليونانية عن الأعياد والاحتفالات الدينية التي كان يصاحبها الرقص، والتهريج، والتنكّر، والأقنعة، وجلود الحيوان، وقد تطوّرت في القرن الخامس قبل الميلاد متخذة اتجاهين رئيسيين هما:

أ– المأساة (التراجيديا): وأشهر كتابها: (أسخيلوس)، (سوفوكليس)، (يوريبيدس).

– أسخيلوس: أشهر تراجيدياته (ثلاثية برومثيوس): برومثيوس حامل النار، برومثيوس المصفّد، برومثيوس الطليق، والأولى والأخيرة من الثلاثية مفقودتان.

وتدور مأساة برومثيوس المصفّد حول العقاب الذي يلقاه الإله الثائر (برومثيوس)، على الإله الأكبر (زيوس) لما أقدم عليه الأوّل من إفساد لخطّة الثاني، الهادفة إلى محو البشرية من الأرض، حيث كان (برومثيوس) نصيرا للإنسان (أمّه الأرض كما تقول الأسطورة)، أعطى الإنسان سرّ النار، التي كانت وقفا على آلهة الأولمب، ثمّ علّمه التجارة، والزراعة، والطب، والملاحة، فأمر(زيوس) أن يشدّ إلى صخرة، ويعذّب، لكن (برومثيوس) يصمد أمام العذاب، فتشتدّ نقمة الإله الأكبر، ويرسل له نسرا جارحا ينهش لحمه، ثمّ تنشقّ الأرض، وتهوي الصخرة في باطنها. وبهذا يعتبر برومثيوس رمز صمود الإنسان في وجه الآلهة، وعناده رمز قدرته على تغيير إرادتها.

– سوفوكليس: من أشهر مسرحياته (أوديب ملكا)، و(أنتيقونا)، حيث تروي الأولى مأساة البائس الذي قتل أباه، وتزوج أمّه من غير علم، وتحكي الثانية عن (أنتيقونا) التي عصت إرادة الملك (كريون)، وأصرّت على قناعتها الأخلاقية.

– يوريبيدس: من أشهر مسرحياته المأساوية (ميديا) و (إلكترا).

ب– الملهاة (الكوميديا):

أعظم كتابها على الإطلاق (**أريستوفانيس**)، ومن أشهر مسرحياته في هذا المجال " الضفادع"، التي منها تمثيلية "الغيوم"، حيث يهاجم فيها الفلسفة في شخص سقراط، ويضعه وجها لوجه أمام رجل عادي من الشعب ليحدث الأثر الفكاهي الناتج عن المفارقة.

ويضاف إلى هذه الأجناس الأدبية، إسهام اليونانيين في الحقول الأدبية الأخرى، حيث قدّموا للعالم في مجال الخطابة رائدا عظيما هو (ديموستين)، وفي مجال النثر الساخر الكاتب المبدع (لوسيان)، وفي النقد (أرسطو)، وفي مجال الفلسفة (أفلاطون، سقراط)، وفي مجال التاريخ سلسلة من المؤرخين العظام (هيرودوت)،(بلوتارك).

– **المرحلة الهيلينية:** وهي زمن سيادة المماليك الهيلينية الكبيرة، وقد تميزت هذه الفترة بضعف في قدرات الشعب الإبداعية.

– **المرحلة الإمبراطورية، أو المرحلة الرومانية:** وهي فترة سيطرة روما، ونهاية المجتمع القديم، مع الانتقال السريع نحو النظام الاقطاعي، وقد تميّزت هذه الفترة بالعودة إلى الموروث الأدبي السائد في المرحلة الكلاسيكية، حيث تمّت صياغة الأجناس الأدبية الأساسية، كما جرى إنشاء أعمال فنية خالدة في تاريخ الأدب العالمي.

ثانيا– الأدب الروماني (اللاتيني):

تمهيد:

يشمل الأدب الروماني القصائد، والمسرحيات، والكتابات الأدبية الأخرى التي كتبها قدماء الرومان، والتي تعكس حياتهم الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، ويبدو هذا الأدب من نواح عدّة وكأنّه استمرار للأدب الإغريقي، مستعملا الأشكال نفسها، حيث قلّدوا الأدب اليوناني وفنونه، وأكثر ما يبرز ذلك في:

أ– الشعر المسرحي: الذي لم يخرجوا به أبدا عن خطّة معلّميهم اليونان خاصة فنّ الملهاة (الكوميديا) الذي كانوا أشدّ إقبالا عليها، وأهمّ كتابها (بلوتوس)،و(ترنس)، كما كتبوا المأساة إلّا أنّهم لم يبرعوا فيها، وأشهر كتابها من الرومانيين (كينتوس إينوس)،و(ماركوس باكوفيوس)، و(لوسيوس أكيوس).

ب– نظموا **الشعر** بفنونه المختلفة، كالشعر الفلسفي، والتّأملي، وشعر الحبّ والوجدان، وخاضوا بوجه خاص في وصف مشاهد الفجور والملذّات، كما نظموا أشعار السخرية، وأبدعوا فيها.

ج– عكس **النثر اللاتيني** ولا سيما **الخطابة** اهتمام الرومان بالقضايا السياسية، وكان خطيبهم الأول (شيشرون) كاتب رسائل، ومؤرخا، وفيلسوفا، وناقدا، وظلّت بلاغته نموذجا يحتذى به في أوروبا، ذلك أنّ البلاغة لم تتبوّأ المرتبة الأولى عند كتّاب اللاتين فحسب، بل اعتبرت فضيلة أخلاقية، بمعنى أنّ الانسان الذي يكون قادرا على الإفصاح عن مكنون نفسه، هو في الوقت نفسه أرقى مرتبة في سلم الأخلاق.

د– بلغ الأدب الروماني ذروته في **العصر الذهبي** الذي يسمّى كذلك " **بالعصر الأوغسطي** " نسبة إلى الامبراطور (أغسطس) الذي اهتمّ بالأعمال الأدبية التي كتبت خلال سنوات ملكه، وقد ظهر في هذا العصر عمالقة الأدب اللاتيني:(فرجيل)، (هوراس)، (أوفيد)، وفيه تألّقت اللغة اللاتينية التي ظلّت لغة العلم، والثقافة، والدين في أوروبا حتى مطلع الأزمنة الحديثة، ليتدهور الشعر اللاتيني بسرعة بعد هذا العصر.

1 – فرجيل: نشر محاوراته الرعوية (أناشيد الرعاة)، وقصائده الزراعية التي كانت أجمل ما كتب عن حياة الريف، بالإضافة إلى أفضل محاولاته في شعر الملاحم، حيث نظم ملحمة اللاتين الكبرى (الإنياذة) مستهدفا تمجيد الشعب الروماني، والاشادة بالامبراطور (أغسطس) الذي كان ممثّل العظمة الرومانية في عصره، وقد بنى (الإنياذة) على أسطورة شعبية ليس لها سند من التاريخ تقول: إنّ الأمّة الرومانية سليلة الطرواديين الذين قصدوا روما بعد سقوط مدينتهم على أيدي اليونان، وأنّ الامبراطور (أغسطس) ينحدر من صلب قائد الطرواديين (إنياذ) الذي سميّت الملحمة باسمه، والغاية من كلّ هذا إضفاء هالة من المجد على الرومان يمكن أن تضاهي هالة الأمجاد اليونانية.

2 – هوراس: هو شاعر روما الأوّل بعد وفاة صديقه فرجيل، كتب في المقطوعات الهجائية، والرسائل التي أشهرها كتاب " فنّ الشعر "، حيث تبحث الهجائيات في المشكلات الأخلاقية والأدبية بشكل مهذّب، وفكه، وساخر، أما " فنّ الشعر " فهي رسالة تحوي القواعد الأساسية للكتابة الكلاسيكية كما فهمها الرومان.

3 – أوفيد: كتب في الشعر الإليجي، وهو نمط من الشعر الذاتي غالبا، موضوعاته متنوعة، وأكثرها تناولا الحبّ، والفجور، بالإضافة إلى هذا لأوفيد كتاب يحمل عنوان (فاستي) يصف فيه الأعياد الرومانية، وأصلها الأسطوري، وأعظم عمل له يحمل عنوان (التحوّل)، وهو أفضل مصدر معروف عن الأساطير الإغريقية خلال العصور الوسطى، وعصر النهضة.

المصادر والمراجع:

– محمد الخطيب، الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، مكتبة الإسكندرية، دمشق، ط1، 1999.

– محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، مصر، (دط)،1952.

– نجيب إبراهيم طراد، تاريخ الرومان، مكتبة ومطبعة الغد، (دط)، 1998.